قرآن يتلى لإنسانية ترقى

نبضات المعرفة القرآنية

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

نسائم حجازية

/AlmajeedyDr @Dr_Amajeedy @quranok quranok.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نسائم حجازية

تسألني -أي حبيب الفؤاد، ونور الجسد المضنى في البلاد، وخليل القلب الغريب عبر الصحارى والوهاد-

تسألني عما اعتمل في صدري من الخواطر.. عما ملكني من الأحاسيس والمشاعر.. وأنا أشاهد ركب المفلحين قد أناخوا أمام الرب الرحيم الغافر.. عند البيت المقدس المبارك العامر.. تسألني –وقد ابتعدت عني فكأنك الذي رفع رايات الجفاء، بعد حياة لطالما امتلأت بالحب والسعادة والصدق والبراءة والصفاء:

-تسألني –وأنت تعلم أن مما ابتليت به بل من أشد البلاء.. تركي لك أو تركَك لي ساعة أزف الرحيل وأبعد الفراق عني النور والضياء.. وحلت مكانه الليالي الظلماء.. كذلك يبلوني الدهر بآلام الفراق وخطوب الأرزاء...

أيا حبيباه: مازلتَ كما علمتُك –إن شاء الله- ممن اجتباه ربه وهداه.. فها أنذا أحاول الاقتداء بك عسى يومًا أن أكون ممن أخلصه الله بخالصةٍ ذكرى الدار فحباه واصطفاه..

تسألني أيا نجي الفؤاد، وصادق الوداد، بعد أن تناءت بنا الديار، وبعُدَ الجوار فلا مزار.. ها أنا ذا أجدد بيني وبين نفسي تذكر العهد القديم، وأتشمم عبق الإخاء الرخيم.

أيا حبيباه.. سأخبرك عن المشاعر.. في أرض الأنوار والأمجاد والمآثر:

هنا–أمام البيت المبارك الذي أشرق منه الهدى للعالمين- ترى الجسد المضنى قد ألقى عنه الدنيا وأسْرَ أوضارَها، وتخفَّفَتْ روحه من ثقيلِ حملِ أوزارها.

/Almajeedye
/Quranok.com

اندرست الآلام بعد أن استنار الفؤاد بمناجاة علام الغيوب، وترتيل ما يداوي القلوب.. كيف لا يكون؟ والمتقون تزدهر مواسم سعاداتهم، وتخضر أنوار لحظاتهم، ويمتلئون بأجمل مفازاتهم عندما تنعكس عليهم جمالِ لحظاتِ السَّحَر، ومناجاة البواكر والأخر.. أمام البيت العتيق؛ إذ يقبلون على الله، ويتركون كل صديقٍ وحبيبٍ ورفيق.. يقولون:

اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعف عنا.. إلهنا إن لم نكن كما أمرتنا فأنت ذو عزٍ وغنى، ونحن المساكين إن لم تكن لنا فإلى من نلجأ إليه سواك ربنا...

إلهي ارحم عبادًا غرهم طول إمهالك،

وأطمعهم كرم نوالك،

وعلموا ألا غنى لهم عن سؤالك..

اللهم ارحم عبادًا طالما نظروا لعظيم إفضالك،

اللهم ارحم عبادًا ذلوا لعزك وجلالك...

إلهي كيف لا ترحمهم...كيف لا تجيب سؤالهم، ولولا فضلك وكرمك لم يصلوا إلى فسيح رحابك، ولم يحطُّوا رحالهم ببابك، طمعًا في واسع جودك وثوابك، حاشاك ربنا أن تخيب سؤل من رجاك! أو ترد صفرًا من تعرض لعظيم كرمك ودعاك!

أيا ضياء القلب الحزين، ونور الحائرين:

سأخبرك عن مشاعري، سأخبرك: هنا ترى الدعاء مع الرجاء.. يفيض من القانتين الأوابين كالماء المنهمر.. تراهم ما فتئوا يرددون القول المستمر، وشوق المحبة والرجاء في قلوبهم قد استقر.. مع الحبيب المصطفى سيد البشر والنذر-

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم-: (سجد لك سوادي، وخيالي، وآمن بك فؤادي، أبوء بنعمتك علي.. هذي يدي وما جنيت على نفسي)..

ما أحلى أن تلهج الألسنة والقلوب مستغيثة بالله علام الغيوب، ومزيل الكروب عسى أن يَنعَمَ المحبُّ الطامعُ الخائفُ بوصل الإله الكريم المحبوب، ، ويفوز بأعظم مرجوٍّ ومطلوب في مقعد الصدق المرغوب.. يكفي رؤيتهم وهم على هذه الحالة ليتيقظ النائم من غفوته، وينتبه الغافل من سكرته.. فهل بالله من مدكر؟ وهل لرضا الكريم وجنته من مشمر ملتاع على نفسه منتصر؟.. فكيف لو شاركهم المحب مقامهم البهي الأغرَّ، وناله من سني أنوارهم ما يشبه الدُّرر،.. فهل يضيع سعي ذلك السعيد الأبرَّ عند الله الملك الوهاب الأكبر.. كيف وقد قال: {نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ} [القمر: 35]... وكذلك ربنا يغفر لمن استغفر وادكر.

وها هي -أيا حبيب القلب الملهوف، ومن تعجز عن وصف مودته الحروف- بعض إشراقات رؤية البيت الحرام، حيث السكينة والبركة والرحمة والسلام.. قمتُ..

قمتُ أبحثُ عما تخزنه الذاكرة مما يليق بالابتهال.. عسى أن ينزاح من قلبي المعنى شؤم آفات المعاصي ويزول من الفكر التحيرُ والضلال..

أتيتُ والقلب –كعادته- يحمل الأوزار الراسخة الثقال..

أوزارٌ غمرت بظلمتها الفؤاد.. حتى طغت على الوجوه والأجساد الشِداد.. وتلفَّعَتْ الروح بشؤم طالعها السواد، وأعلنت على الملأ والأشهاد موسم الحزن والحداد ..فمالها فيَّ من واق وما لها من وال...

فاستحضرت نفسي أنواعًا من الابتهال، فبعضها يسمو بالروح إلى جنات ذي الكرم والجلال، وبعضها يردده اللسان، فيصفو له القلب، ويشعر فيه بقرب ربنا الكريم المتعال..- وبعضها يداوي الجراح ويعالج الأمر العضال..

ولكنها جميعًا لم تلمس يد الشمس ولا سَمِعتْ تسابيحَ الرعود.. ولم أرها قد فتحت أمام قلبي الباب الموصود، ولا عالجت من الفؤاد يبس الإعراض والجحود، مع أن أشواق القلب ما لها حدود

وتسألني: لماذا لم أصل بها إلى غاية النور الممدود؟

أجيبك: لا لضعفها بل لضعفي حين أرددها.. وكيف السبيل وقد قيدتني القيود، وأكلت نفسي أمام نور ربي خطيئات العبث واللهو والصدود، وعوقَبْتُ عن لذة الأنس وحالت بيني وبين حلاوة المناجاة السدود..

أيا صاحب الإطلالة الرائعة، والإخبات الإيماني والنفس الأوَّابة الخاشعة:

هل تدري لماذا أكتب إليك؟ لأني أعرفك.. حقًّا يا حبيبي أعرفك.. عندما جئتَ إلى هنا مرة تناديني مودِّعًا: {إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: 99].. تبتسم ابتسامة تكاد الشمس أن تكون دونها وأنت تقول: سيهديني –قراءة يعقوب أي الياء في سيهديني–... وتراني ودموعي تتبعك، فتتنزل مني حارةً وتكويني.. وما علمتُ أنه فراقٌ طويلٌ لا زال يُحرِقني ويشويني.

تسألني لماذا أكتبُ وقد فرقتنا الأيام، ومضت الأوقات كالأحلام، أو غمض المنام..

تسألني: أنا أعرفك.. وأظن أنك بعد أن رجعت إلى ربك قد قُضِيتْ لك الحاجات، وتحققت لنفسك الطموحة الأمنيات،

وقد رأيتك من قبل يتألق نجاحك مرةً بعد مرة ترتقي في المعالي والمكرمات..

وكأني بك هنا في محاريب القانتين قد ارتفعت منك الزفرات.. وتزين منظرك برفعك ليديك تدعو الملك الجليل رفيع الدرجات...

تعال أيا حبيبي تعال: اسمعني لأهمس في سمعك بالسر اللذيذ.. سر الفتح المهيب، والحال العجيب، في حضرة الرب الودود المجيب.. ما أجمل أن يفتح لك الباب بعد طول الوقوف، وما ألذ أن تُلهَمَ مناجاة القلب الشغوف أمام الرب الرؤوف.. وأن تنساب من قلبك قبل لسانك عاطر الحروف:

ربِّ... ربِّ: إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وعظم معصيتي، وكثرة ذنوبي وعظم خطيئتي، وظهور فقري وفاقتي، وكبر مصيبتي، وشدة حاجتي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ...

يا رب أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ إِلَى مَنْ تَكِلُنِي: إِلَى عَدُوٍّ بعيد يَتَجَهَّمُنِي

إلى من تكلني يا رب: إِلَى صديق قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي

إلى من تكلني يا رب: إلى نفسي الضعيفة الظلومة الخاطئة العاصية المقصرة تغمُّني وتحزنني وتُرديني

إلى من تكلني: يا رب إلى الضعفاء وأنت القوي العظيم

إلى من تكلني: إلى الفقراء وأنت الغني الكريم

إلى من تكلني: إلى الأذلاء وأنت العزيز الحكيم

إلى من تكلني: إلى الجهلاء وأنت الخبير العليم

إلى من تكلني: يارب

ربَّـاهُ أقـبـلـت الـوفـودُ وزادُهـا ... تَقْوى سَـقـاهـا بـالـدُّموعِ وجيـبُ

لَـكَ رحـمـةٌ عـظـمـى تـظـلِّـلُـهـم بهـا ... ولـهـمْ نـفـوسٌ خشَّـــعٌ وقـلـوبُ

وقَـفـوا بـبـابِـكَ يســألـونَـكَ نـعـمـةً ... ورضًـــا وأنـتَ تـبَـرهُـم وتُـجـيـبُ

ووَقَفْتُ معقودَ اللِّســان فـمـا معي ... إلا أمـــــانٍ نُـوَّمٌ وذُنُـوبُ

/Almajeedye
/Quranok.com

ولكأنني في تلك العرصات أتقلبُ تقلبَ الموجوعِ الهائمِ في الصحارى والوهاد... أنادي ربي بأنينٍ وحنين.. وابتهالٍ وحزنٍ دفين.. قائلًا:

رباه إني لما أنزلت إلي من خير فقير... أكررها عشراتٍ تكرير المسكين الخائف الضرير.. أكررها عشراتٍ فعل الذليل الكسير، ولسان حالي حال الملهوف الحائر الأسير:

آهٍ رباه.. رباه.. يا ربي: ها أنا ذا بين يديك ..أرنو إليك..((ربِّ أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي.

ربِّ اجعلني لك شكارًا . لك ذكارًا . لك رهابًا . لك مطواعًا . إليك مخبتًا . إليك أواهًا منيبًا.

ربِّ تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجتي، واسلل سخيمة قلبي))

يا رب يا رب:

ربَّـاهُ جئتُـكَ تائبًـا قـد مسَّـني ... ممَّـا جنيـتُ ضـلالةٌ ولُغُـوبُ

عَظُمَـتْ مواسـمُك التـي أعـددتَها ... للتـائبين بهـا الحيـاةُ تطيـبُ

ورجعـتُ يـا ربـي إليـكَ وجعْبَتـي ... مـلأى حـكـايـا والـجـوانـح حـوبُ

فـامنُنْ بعفـوكَ يـا كـريمُ فـإنَّني ... في سـاح فضـلِكَ طـائعٌ ومنـيبُ

هنا –أيها الطالب للمكرمات المرتقي للدرجات– هنا تردد أعظم ابتهالات الصالحين، وأجمل ترانيم المسبحين، فتنادي ذا العرش ذا القوة المتين: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء : 87]...وتستغيث فعل الراكعين الساجدين:

فَأَخِرُّ أَسْجُدُ ضارِعًا وأَظَلُّ أَنْشِجُ بالبُكاءْ!

وأقول.. يا ربي استطلتُ وما أنا إلا هَبَاءْ!

وأقولُ.. يا رَبِّي أَثِمْتُ وضَلَّ صُبْحِيَ والمَساءْ!

وأَقُولُ يا رَبِّي أَبِقْتُ وما اهْتَدَيْتُ إلى النَّجاءْ!

وأَقُولُ يا رَبِّي مَرِضْتُ وما أُرِيدُ سِوى الشِّفاءْ!

واليَوْمَ أَصْحُو من سُباتِيَ أَسْتَفيقُ مِن البَلاءْ!

واليَوْمَ أَهْتِفُ بالدُّعاءِ فهل سَيُسْعِدُني الدُّعاءْ؟!

أَنِّي لأَشْعُرُ بَعْدما.. بَيَّنْتَ لي الدَّرْبَ السَّواءْ!

وسَكَبْتَ في قَلْبي السَّكِينَةَ والتَّطَلُّعَ.. والرَّجاء!

أَنِّي نَجَوْتُ فَلاَ نُكُوصَ ولا رُجُوعَ إلى الوَراءْ!

جَلَّتْ أَيادِيكَ السَّخِيَّةُ واسْتَفاضَتْ بالعَطاءْ!

فَأَنا السَّرِيُّ بما حَبَوْتَ وكنْتُ أَجْدَرَ بِالرِّثاءْ!

قد كُنْتُ في الدَّرْكِ السَّحِيقِ فَصِرْتُ في القِمم الوِضاءْ!

أيا حب القلب وتوأم الروح:

لربما عدت تسألني: ولم كل هذا التوجع المرير؟ والبكاء المتصاعد بشهيق وزفير؟ تسألني الكرة بعد الكرة، والمرة بعد المرة وفي نغمة صوتك أسف علي وإشفاق، وفي نبرة حروفك تلطف بحالي وإرفاق..

تسألني وأنت الذي لطالما أنشدت لي تُحَفِّظُني.. وتستثير مكامن الإيمان مني وتستفزني لذكر الله كثيرًا، وتسبيحه بكرة وأصيلًا، والتلذذ باسمه شعورًا وحبًا وترتيلًا.. أنت الذي تكرر قصيد الابتهال الخالد على مسامعي.. فتهز بفعلك قلبي وتقضُّ مضاجعي.. يا رب:

لـك الأمـر لا يـدري عبـادك مـا بيـا لـك الأمـر لا للناصحيـن ولا لِيَـا

وهـذي معاذيـري وتـلك صحـائف ... عليهـا خطاياهـا.. وفيهـا اعترافيـا

وفيهـا مـن الأمـس الأليـم وحاضـري ... وفيهـا مـن الآتي وفيهـا ابتهاليـا

وفيهـا تهاويـلٌ .. ومهجـة حـائر ... ينـام بهـا يأسًـا ويصـحو أمانيـا

وفي الـنفس مـا أخشـى ظـلام ضبابه ... علـى نـور إيمانـي ومسـرى حياتيـا

ونازعنـي شـوقٌ إليـك وهزَّنـي ... مـن الغيـب مـا يهفـو إليـه رجائيـا

أناديـك في ضـعف وأخجـل أن تـرى ... جـراحَ أمانيـه ولـون دمائيـا

لـك الأمـر أشـواقي ببابـك والمـنى ... ولـي أمـلٌ ألا يـطول انتظاريـا

لـك الأمـر مـا لـي أرتجيـك فيلتـوي ... لسـاني وأمضـي بـالتوسُّل شـاكيا

ومنَّيـت روحـي مـن سنـاك بلمحـة ... أُضـمِّد آلامـي بـها وجراحـيا

ضـياؤك أغـرى بـاليقين جوارحـي ... وفجّـر أعماقـي وأفـضى بذاتـيا

لـك الأمـر أسباب ضـعافٌ وخاطـري ... ببابـك يخـشى رجعتـي وانـحرافيا

دعوتـك مـلءَ النفـس ألا تـردَّني ... كسـيفًا وألا تـستعيد سؤاليـا!!

لـك الأمـر ألهـاني حـديثٌ أعـاده ... عليـك ضـميري واسـتحاه لسانيـا

تَنسّـمْتُ أمـواج الرحيـل وأشـرفت ... علـيَّ أمـانيه فَبَـارِكْ شراعيـا!!

وبعد: أيها الراحل مهلًا.. هل أنادي جدار الصمت.. كلا! آن الأوان لأردد بإخباتٍ وإذعان: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد: 16]..قد آن وحان.. آن الأوان لأعتق نفسي من التعلق بكل شان، يدبر له في الظاهر الثقلان إلى التعلق الحق الصادق بالرحيم الرحمن.. فلا يبقى لي إلا أن أسأل ربي في إخباتٍ وإذعان: آتني خير ما تؤتي عبادك الصالحين يا عظيم يا منان..

من عزيزية أم القرى.. أكتب لك وأُراودُ دموع العين أن تكف السرى.. وتصنع من دعائها وصلاتها ما صنعه محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- خير الورى، أرجو يومًا أن أراك وقد افتخرتَ بي، وعلمتَ أنني أهلٌ للود .. اللهم أسألك إيمانًا لا يرتد، ولا نعيمـًا لا ينفد، ومرافقة نبينا محمد –صلى الله عليه وآله وسلم- في أعلى جنان الخلد...

ولك مني –على الرغم من كل شيء- قلبًا دائمًا محبًا وامقًا، ولسانًا دائمًا داعيًا صادقًا.

محبك/ عبد السلام مقبل المجيدي

غرر ذي الحجة 1433هـ

/Almajeedye
/Quranok.com